حول التَّرجمة العربيّة لمخطوط رحلة عمر بطون من آبلة إلى مكة

باهرة عبد اللطيف / إسبانيا(*)

يعدّ كتاب "من آبلة إلى مكة: حكاية رحلة عمر بطون"(١) أول ترجمة عربيّة لمخطوطة تـروي رحلة حج قام بها مسـلمان مدجّنان (٢) ، هما عمر بَطـون ورفيقه محمد دِلْ كُرَّال، اللـذان خرجا من مدينة آبلة بإسـبانيا إلى مكـة المكرمة في رحلة اسـتغرقت أكثر من أربعة أعوام، من عام ١٤٩١م حتى عام ١٤٩٥م.

يضـم الكتـاب نص رحلة القشـتالي عمر بطـون مترجمـاً إلى الإسـبانية، لأن النصّ الأصلي للمخطوطة مكتوب بلغة الألخميادو (Aljamiado) (٣) أي الإسبانية المكتوبة بحروف عربية، كما يضم دراسـة قـام بها فريق من الباحثين الإسـبان من جامعة بلـد الوليد ويتألف من: شَـبِيا كَزاسَس كَنَلْس، أولاتْث بِيّانْوِيبا ثوبْياثارّيتا، سيرافين دي تابْياس سانتشيث، خابيير خيمينِث غادَيا، آنا أتشْيبارِيّا أرْسواغا(٤).

(*)باحثة من اسبانيا.

(١) ستصدر ترجمتي العربية لكتاب "من آبلة إلى مكة: حكاية رحلة عمر بطون ١٤٩١-١٤٩٥" قريباً، وقد تفضل بالمراجعة التاريخية الدكتور صالح السنيدي، عن مؤسسة دارة الملك عبد العزيز في المملكة العربية السعودية ضمن منشوراتها عن رحلات الحج.

(٢) المدجّنون هم المسلمون الذين عاشوا في ظل الممالك المسيحية وواصلوا بنحو أو آخر ممارسة شعائرهم الدينية قبل سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين، عام ١٤٩٢على أيدي الملكين الكاثوليكيين، إيزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أراغون. (المترجمة)

(٣) أي الأعجمية أو العجمية. واللغة الأعجمية بالمعنى العام هي أي لغة غير عربية مكتوبة بحروف عربية، أما في تراث الأندلس فهي تشير إلى الإسبانية أو البرتغالية أو المستعربية المرسومة بالحروف العربية التي استخدمها المسلمون (الموريسكيون) في أعقاب إرغامهم على التنصير من قبل محاكم التفتيش، وقد لجأوا إلى هذا الإجراء سعياً للحفاظ على المتبقي من هويتهم العربية والإسلامية بوصفها آخر ما تبقى لهم من لغة القرآن، ولإخفاء مضامين مؤلفاتهم (الدينية على وجه الخصوص) عن محاكم التفتيش. (المترجمة)

(4) Javier Casassas Canals, Olatz Villanueva Zubizarreta, Serafín De Tapia Sánchez, Javier Jiménez Gadea, Ana Echevarría Arsuaga.

وقـد صـدرت الطبعـة الأولى من هـذا الكتاب بالإسـبانية عـن منشـورات جامعـة بلـد الوليد (بايّادوليد) عام ٢٠١٧.

لمحة عن المخطوطة وأهميتها:

تـروي المخطوطـة رحلـة الحج التـي قام بها كلّ مـن عمر بطـون ومحمد دِل كُـرّال في خريف عام ١٤٩١ مـن مدينة آبلة إلى مكّـة المكرّمة، بيد أن تعقيدات الرحلة ومشـاقها أدت بالقشـتاليْن إلى الضياع لأكثر من أربعة أعوام عاشـا في أثنائها تجارب استثنائية فريدة عبر تنقلهما ما بين تونس والقدس والقاهرة وسـيناء والإسكندرية وصنعاء وجدة، مـروراً باليونان وتركيـا، قبل الوصول في نهاية المطـاف إلى مكّة المكرّمة، بهـذا المعنى فإن المخطوطة لا تقتصر على رحلة عمر بطون فحسب بـل تتضمن توثيقـاً لظروف الرحلـة ومصاعبها وأخبـار بطلهـا الذي هـو شـخصية حقيقية من مدينة آبلة بإسبانيا.

أما بشـأن تدويـن تفاصيل هذه الرحلة وأصل المخطوطة فمن المحتمل أن يكون الحاجّان قد قصّا مغامراتهما إثر عودتهما إلى إسبانيا على بعضٍ من أبنـاء طائفتهما من المسـلمين، وقد قام أحد هؤلاء بكتابة رواية عمر بطون باللغة الأعجمية، وهذا ما يفسّر لنا مسـألة العثور عـلى المخطوطة بين كتب أحد فقهاء بلـدة ترويل (Truel) في مدينة كالاندا (Calanda) التابعـة لإقليم أراغـون، وهي اليوم محفوظة في مكتبة برلمان إقليم أراغون.

تعـدّ رحلة عمر بطون ومحمد دل كرّال وثيقة اسـتثنائية لأنها تلقي الضوء على أحوال المسلمين المدجّنـين في إقليـم قشـتالة، كمـا أنها تقـدّم لنا تسـجيلاً مهمّـاً لمشـاهداتهما في ديـار المسـلمين بوصفهمـا قادمَيْن من قشـتالة في ظرف تاريخي دقيـق، فقـد غادرا عـام ١٤٩٢، أي قبل سـقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين، وحين عودتهما لقيا الأحوال قد تغـيرت تماماً مع بدء حملات التنصير القـسري التـي توّجت بعمليـة الطـرد الجماعي النهائي للموريسكيين من مملكة إسبانيا.

ولهذه المخطوطة أهمية مضافة تتمثل في كونها توثّـق أول رحلة حجٍّ معروفة إلى مكة المكرَّمة قام بها هـذان المسـلمان المدجّنان من مدينـة آبلة في أواخـر القـرن الخامس عشر، وهـي تحفل بسرد تفاصيل رحلتهما الطويلـة وما لقياه من صعاب ومخاطـر وتسـجيل لانطباعـات وشروحات ذات طبيعة متنوعـة، تاريخية وجغرافيـة واجتماعية وأنثربولوجيـة للبلدان والمجتمعـات التي مرّا بها وهمـا يجتـازان أراضي حـوض البحـر الأبيـض المتوسط انطلاقاً من الغرب المسيحي حتى الشرق المسلم.

تناولـت الدراسـة في الجـزء الأول مـن الكتاب أوضاع المسـلمين القشـتاليّين المدجَّنـين في أواخر العصـور الوسـطى في آبلة ومنطقـة حوض نهر دويرة، على وجه التحديد. وقد تطرقت إلى رحلات الحجِّ من شـبه الجزيرة الإيبيريَّة إلى مكة المكرّمة في القـرن الخامس عشر، فضـلاً عن سرد ظروف الرّحلة الصعبة، والمغزى الروحي للحجّ بالنسـبة للمسـلمين في إسـبانيا، كما تقصّت الدراسة سيرة حيـاة الحاجّين، عمـر بَطون ورفيقـه محمد دِلْ كرَّال، وبحثـت في ظروف كتابة مخطوطة الرّحلة وخصائصهـا اللغويـة، كمـا أشـارت إلى بقيـة المخطوطات التـي خلّفها المسـلمون المدجّنون في إقليمي قشتالة وأراغون .

أمـا الجـزء الثاني مـن الكتـاب فهو نقـل حرفي لمخطوطـة الرِّحلـة المكتوبـة بلغـة الألخاميـادو إلى اللغـة الإسـبانية المعـاصرة التـي نقـدم هنا ترجمتها إلى اللغـة العربيَّة، مع بعض الملحوظات التوضيحيَّة، ليختتـم الكتاب بسرد ببليوغرافي مع نسخة مصورة للمخطوطة.

تألف فريق الأساتذة الباحثين من جامعة بلـد الوليد مـن متخصصين في مختلف الأقسـام العلمية، بالتعاون مع المسـتعرب شـبيا كزاسَس كَنَلْس الأسـتاذ المتخصص في الدراسات العربيَّة-

الإسـلاميَّة والمخطوطـات الموريسـكيَّة والمدجّنيَّة في جامعـة سـالزبورغ. وجميع المؤلفـين هم من الباحثين المتخصصين في دراسـة تاريخ المسـلمين في إقليـم قشـتالة والبحـث في أخبـار المدجَّنـين والموريسـكيِّين [٥] هنـاك، ولاسـيَّما في مدينة آبلة التي ضمّـت أكبر تجمّع معروف للمسـلمين بهذا الإقليم.

كمـا أنَّ فريـق البحث العلمي هذا يعكف منذ سـنوات على تقصّي آثار الوجود الإسلامي، ويضع الدراسات عن المسلمين وعن الثقافة الإسلاميَّة من مختلـف جوانبهـا المتعددة. وقد قـادت جهودهم البحثيـة الدؤوبة إلى الاعـتراف التاريخي بواحدةٍ من أهـمّ الجماعات الإسـلاميَّة في خواتم العصور الوسـطى الإسـبانية وأكبرها على الاطلاق، ونعني بها تلك التي عاشـت في مدينة آبلـه، وهذا الكتاب هو حصيلـة جهودهـم في توثيـق أول رحلة حجّ معروفـة إلى مكّة قام بها مسـلمان قشـتاليّان في أواخر القرن الخامس عشر.

لا يفوتنـا هنـا أن نشـير إلى حـدث مهـم وقع عام ١٩٩٩ تمثـل بعثور حملات البحث والتنقيب الأثرية في مدينة آبيلا الحالية على مقبرة للمسلمين ضمت أكثر مـن ٣٠٠٠ قبر إسـلامي، الأمر الذي كشـف عن أكبر مقبرة إسـلامية في أوروبا قاطبة وليس في إسبانيا فحسب.

ولا بـد لنـا مـن التنبيه إلى الأهميـة المتعاظمة التي باتت تحتلها على المستوى البحثي في إسبانيا مأساة الموريسكيين المتمثلة بإرغامهم على التنصير وطـرد أكثر من ثلاثمائة الف مسـلم - وفقاً لأقل التقديـرات- ممن قـسروا على الترحيـل تدريجياً مـن شـتى مناطـق بلنسـية وقشـتالة وأراغون ومرسـية وغرناطـة، مـا بـين الأعـوام ١٦٠٩ و ١٦١٣، تبعاً لمؤرخين معروفين ومنهم: الإسـباني أنطونيـو دومينغيـث أورتيـث والفرنـسي برنار فنسنت المشـهوريْن في مؤلفهما المرجعي "تاريخ المورسكيين: حياة ومأساة أقلية".

وهكذا ازداد عدد البحوث والمؤلفات والندوات التـي تتنـاول تأثير طرد المسـلمين عـلى المجتمع الإسـباني الـذي كان تعدديـاً بفضـل الحضارة العربيـة الإسـلامية وبـات مسـيحياً متعصبـاً منغلقـاً على نفسـه، بعد تنامي سـلطة الكنيسـة التي بلغت ذروتها مـع محكمة التفتيش وقيامها بطرد المسـلمين -واليهود أيضاً- وحـرق تراثهم ومؤلفاتهـم وتجريدهـم من ممتلكاتهـم وأحياناً إزهاق أرواحهم أيضاً.

ويتجلى هذا الاهتمام من خلال العناية بالآثار العربيـة الإسـلامية والمخطوطـات الموريسـكية والمدجنيـة، بعـد أن شرع كثـير مـن الجامعـات والمراكـز البحثية الإسـبانية المهتمة بهذا الشـأن بجمـع المخطوطات وتقـصّي أخبارهـا، في داخل إسـبانيا وخارجهـا، والعـودة إلى مـا حفظ منها في المكتبـات الوطنيـة والعالمية ومراكـز البحوث المتخصصة، لدراسـتها انطلاقاً من موقف مغاير، بوصف الموريسـكيين مواطنين إسـبان ومسلمين أندلسيين معاً.

حول المخطوطات المكتوبة بلغة الألخميادو:

العنايـة بالمخطوطـات الموريسـكية المدجنيـة المكتوبة بلغة الألخميادو ليست بالأمر المستجد، إذ يعود تاريخها إلى عـام ١٨٧٨، حين قام إدواردو سـابيدرا [٦] Eduardo Saavedra بوضع أول كشّـاف ضمّ أهمّ ما عثر عليه آنـذاك مما له صلة بالمخطوطـات والكتابـات الأعجميـة أو العجمية

(٥) هم المسلمون الذين تنصروا قسراً أو طواعية في أعقاب سقوط غرناطة عام ١٤٩٢، وعانوا الظلم والتنكيل على يد محكمة التفتيش الإسبانية حتى طردوا بأمر ملكي من أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية عام ١٦٠٩، وتشتتوا في المنافي، وقد لقبوا بالموريسكيين ومفردها موريسكي (Morisco) أي المورو الصغير، كناية عن الاحتقار.

(٦)مستعرب أسباني، مهندس معماري وعالم آثار ومؤرخ (١٨٢٩-١٩١٢).

حتـى ذلـك الحـين، وقدّمـه بمناسـبة انضمامه إلى الأكاديميـة الملكيـة الإسـبانية، وزاد عليـه في العام نفسـه بنـشر "فهرس عام لـلأدب المكتوب بالألخاميـادو"، حـدّد فيه المخطوطـات وأمكنة حفظهـا سـواء في المكتبـات العامـة أم المكتبـات الشـخصية المعروفة آنذاك، وبلغ العدد الذي ثبته (١٣٥) مخطوطـة، بعـد أن واصـل بحثه ليضم في قائمتـه مخطوطـات أخـرى غفل عنهـا أو تم اكتشـافها في مرحلـة لاحقة. وفي عـام ١٩١٢ زاد عليها المسـتعربان خوليان ريبيرا وأسين بلاثيوس سبع وسبعين مخطوطة.

أمـا الرقـم النهائي لمخطوطـات الألخاميادو الموريسـكية والمدجنيـة فيصعـب حـصره حالياً بعـد أن نمـا في العقـود الأخيرة، وكذلك لانتشـار هذه المخطوطات وتوزعهـا على عدد من المكتبات في مدن إسـبانيا (مدريد، الإسـكوريال، برشلونة، طليطلة، ثاراغوثا، أراغون، تارّاغونا، بَيْدا) وكذلك خارج إسبانيا (باريس، بروفانس، لندن، كمبردج، أوكسـفورد، إبسـالا، بولونيا، رومـا، الفاتيكان، فلورنسة، بيرن، مالطة، سدني، المكسيك، الجزائر، قطر).

ولـو تطرقنـا إلى الأسـباب الأوليـة التي دعت إلى الاهتمام بالأدب الموريسـكي بعامة، ولاسـيما المكتـوب منه بلغـة الألخميـادو، فهـي متعددة، لكنها في المـاضي كانت تنطلق من منظور تقليدي واحـد، هو دراسـة تاريـخ إسـبانيا وتأثير طرد الموريسـكيين وتداعياته على واقعها، بينما أصبح الطرح الحديث الآن يتناول موضوعة الموريسكيين ومـا حل بهم مـن منظور آخـر يتفاعل مع محنة الخـاسر، وليس تدويناً أفقياً اسـترجاعياً لما خطّه الظافر. فقد باتت دراسـة الموريسكيين تُعنى بهم بوصفهـم جـزءاً من المجتمـع الإسـباني، نكّل به وشُرّد وحُـرم من حقوقه، بعد قرابة ثمانية قرون من الوجود العربي الإسلامي.

مـن هنـا أخـذ يتزايـد الاهتمـام بموضـوع الموريسكيين والمدجّنين وتراثهم، وشرع الباحثون بفتح صفحات المـاضي بحرية وموضوعية، بنحو خـاص في أعقاب عهد الديكتاتـور فرانكو وبداية عهـد الديمقراطية عام ١٩٧٥ وإرسـاء الحريات وواقع التنـوع الديني والثقافي، حتى أن إسـبانيا في عـام ٢٠٠٩ اسـتذكرت مـن خـلال جامعاتها ومؤسسـاتها ومراكزهـا البحثيـة المتخصصـة الذكرى المئوية الرابعة لمأسـاة طرد الموريسكيين، وكرست لها المؤتمرات والحلقات الدراسية والمواد والبرامج الإعلامية في سابقة فريدة من نوعها.

وثمـة مـن بين المؤرخين من يتحدث عن حالة القلق التي أصابت إسبانيا، وانتقلت إلى أدبها منذ القرن السـادس عشر حتـى الوقت الحـاضر(٧). وهنـاك مـن المسـتعربين والكتـاب والمثقفين من يشير إلى "عقدة الموريسكين" في الذاكرة الإسبانية وعن الجرح الذي خلّفته في المسار التاريخي، وعن ارتبـاط مسـألة الموريسـكيين بالقضايـا الكبرى السياسـية والأيديولوجيـة التاريخية في إسـبانيا، وعن " الهوية الإسـبانية" والتعامـل من منظور أوسـع مع مكوناتهـا التي باتت تشـمل الأندلس وتاريخ المسلمين فيه.

كل هذا حفز المتخصصين على مستوى الدراسات الأكاديميـة والبحـوث العلمية عـلى تحقيق ونشر المخطوطـات التـي عُثـر عليها مصادفـة، أو تلك المحفوظة في المكتبات الوطنية ومكتبة الإسكوريال عـلى وجـه الخصـوص، والتنافس على الكشـف عنها وإعادة قراءة تاريخ المسـلمين الموريسكيين والمدجّنين من خلالهـا. وتركز البحوث الأكاديمية الحالية حـول تراث الموريسـكيين والمدجّنين على دراسـة شـتى جوانب حياتهم وآثارهم من خلال

(٧)كتابات المفكر أميريكو كاسترو المبكرة تناولت هذا الموضوع منذ أواسط القرن الماضي، وصولاً إلى كتاب "أسبانيا بشكل جلي: المنطق التاريخي للبلاد الأسبانية" للفيلسوف الأسباني خوليان ماريّاس، ترجمة الدكتور علي المنوفي، ٢٠١٤.

السـجلات المدنيـة والضريبيـة وملفـات الأديرة والكنائـس والبلديـات، وتتعقبها في المنـافي التي توزعوا عليها في أعقاب عملية الطرد [٨].

ومـا زال أمـام الباحثـين والدارسـين العـرب فرصة كبيرة للإسـهام في الكشـف عن كنوز هذه المخطوطـات القيمـة وتحقيقهـا. وهنـا لا بد من تظافـر الجهود وتعزيـز العمل المؤسـسي الثقافي والأكاديمي، الإسـباني-العربي المشـترك، لإنجاز مثل هذه المهمة العظيمة.

حول لغة المخطوط وصعوبات الترجمة:

كما أسـلفنا من قبل فإن مخطوطة رحلة عمر بطـون المحفوظـة في مكتبة برلـان إقليم أراغون للحكم الذاتي في إسبانيا مكتوبة بلغة الألخميادو، والكتاب الحالي هو ترجمة عربية لنص رحلة عمر بَطون من الإسبانية، وليس دراسة نقديَّة تاريخيَّة أو لغويَّـة لهـا، وقـد بذلنـا جهـداً كبـيراً في نقل المخطوطة إلى العربيَّة بترجمة حرفيَّة متماسـكة، عـلى الرغم مـن أن نص المخطوطة يشـكو ضياع كلمات وسـطور كثيرة، وأحيانـاً صفحات كاملة بسبب التلف الذي أصابها بفعل الرطوبة والقدم.

وقد سـعينا قدر الإمكان للحفاظ على أسـلوب مدوّن الرّحلة المجهول، على الرغم من عدم وضوح التعبـير وقصـوره الذي نلمسـه أحيانـاً، المتمثل بخلـط الصياغات والأسـاليب اللغوية الإسـبانية والعربيَّـة معاً، أو بتصريف الأفعـال العربية على غرار الأفعال الأسـبانية، فضلاً عـن عدم الدقة في السرد والوقوع في بعض الأخطاء التاريخية.

ولا يفوتنـا التذكـير هنـا بأن هـذه هي بعضٌ من سـمات الأدب المكتوب بلغـة الألخميادو التي اضطر إليها المسـلمون في إسـبانيا، بسبب القمع والملاحقة التي تعرضوا لها في ذلك العصر.

مع ذلك لم نسعَ بأية حال من الأحوال إلى التصويب إلا مـا نـدر، لأن تصويبهـا أمر يخـرج عن هدف العمل الـذي نحن بصدده، ونعنـي به "ترجمة" المخطوط.

وإن كان لنا أن نقول كلمة أخيرة، فهي الإقرار بصعوبة ترجمة المخطوطة إلى العربية للأسـباب التي أتينـا على ذكرهـا، وقد اجتهدنـا -المترجمة والمراجـع- في إضـاءة بعـض المصطلحـات أو الإشـارات التاريخية بإضافة الكثير من الهوامش للقـارئ غير المتخصـص في تاريخ الموريسـكيين والمدجّنين.

*****

بيانات الكتاب:

العنوان:

"من آبلة إلى مكة"

حكاية رحلة عمر بطون

(١٤٩١-١٤٩٥)

De Ávila a La Meca

El relato del viaje de Omar Patún

(١٤٩١-١٤٩٥)

تأليف مجموعة من الباحثين الإسبان:

شَـبِيا كَزاسَـس كَنَلْـس/ أولاتْـث بِيّانْويبـا ثوبْياثارّيتا/ سـيرافين دي تابْياس سانتشـيث/ خابيير خيمينِث غادَيا/ آنا أتْشيبارِيّا أرْسواغا

Javier Casassas Canals, Olatz Villanueva Zubizarreta, Serafín De Tapia Sánchez, Javier Jiménez Gadea, Ana Echevarría Arsuaga

ترجمة عن الأسبانية: باهرة عبد اللطيف ياسين

مراجعة: أ. د. صالح السنيدي

- النسخة الإسبانية صادرة عن منشورات جامعة (بايّادوليد) عام ٢٠١٧ - طبعة أولى.

- النسخة العربية ستصدر قريباً (٢٣٠ صفحة تقريباً)

(٨)يمكن مراجعة موقع جامعة أوبييدو الخاص بالمخطوطات الموريسكية والمدجنية المكتوبة بلغة الألخاميادو:

http://www.arabicaetromanica.com.

فهرس الكتاب

مقدمة المترجمة

مقدمة المؤلفين

أولاً ـ المسلمون القشتاليّون في أواخر العصور الوسطى:

- المجتمعات الإسلاميَّة في حوض نهر دويرة
- الجماعة المسلمة في آبله
- عمر بَطون ومحمد دِلْ كُرَّال: سيرة ذاتية

ثانياً ـ رحلات الحجّ إلى مكّة من شبه الجزيرة الإيبيريَّة:

- قرار الحجّ
- ظروف الرِّحلة وجغرافيَّتها
- مكـة بوصفها وجهـة للحجِّ في القرن الخامس عشر
- مغزى الحجّ الرُّوحي للمسلمين المدجَّنين

ثالثاً ـ مخطوط الرِّحلة:

- النَّتاج المدوّن للمجتمعات الإسـلاميَّة في قشتالة وأراغون
- المخطوطات الإسلاميَّة التي عثر عليها
- خصائص رحلة عمر بَطون اللغوية والمادية

رابعاً ـ حكاية الرِّحلة "النَّص"

خامساً ـ السَّرد الزمني للرحلة

سادساً ـ ملحوظة توضيحيَّة

سابعاً ـ المصادر والمراجع حسب الفصول

ثامناً ـ صور مخطوط رحلة عمر بَطون

غلاف الكتاب